

المحاضرة (السادسة)

المبحث الخامس

نظرة عامة على المدارس الكلامية الاسلامية (حديث الافتراق)

أختلف المتكلمون والمدارس الكلامية في الاخذ بالحديث في المجال العقائدي لأسباب بعضها مبرر وبعضها قالوه بدافع التشهي وهيمنة الاهواء ، ولعل أبرز ما أثر في وضع المنهج الكلامي هو حديث الافتراق .

أولاً : حديث الافتراق

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَفَتَّرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)^(١) . وقد رواه الترمذي^(٢) بزيادة: (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً) قالوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) .

ثانياً : موقف المدارس الكلامية من حديث الافتراق .

اختلفت المدارس الكلامية الاسلامية في الأخذ بحديث الافتراق، وقد كان لهذا الاختلاف أثر في موقف المتكلمين من المدارس الكلامية المخالفة من المسلمين ، وهذا يستدعي جهداً في الاثبات وآخر في النفي .

١. فريق ذهب إلى صحة جل الحديث باستثناء «كلها في النار إلا واحدة» وعليه يكون الحديث حسب تقديره على النحو الآتي : «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَفَتَّرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً» .

رجح هذا الرأي ودافع عنه ابن الوزير اليميني في كتابه " العواصم من القواصم "، حيث حذر من الاعتراض بزيادة «كلها في النار إلا واحدة» قال ابن الوزير : « وإياك والاعتراض بـ " كلها هالكة، إلا واحدة " فإنها زيادة فاسدة، غير صحيحة القاعدة لا يؤمن أن تكون من دسيس الملاحدة.»^(٣) .

٢. فريق ذهب إلى القول بعدم صحة الحديث أصلاً من جهتي السند والمتن ، وقد مال إلى هذا الرأي ودافع عنه ابن حزم في كتابه " الفصل في الملل والاهواء والنحل" ، لهذا لم يأبه به في تصنيف المدارس الكلامية، فركز في بيان موقفه منها على المعتقدات نفسها ومحاكمتها إلى ما قطع به من أحكام ومعارف .

(١) أورده السيد محمد بن جعفر الكناني من طريق عدد من الصحابة رضي الله عنهم . نظم المتناثر ، كتاب الإيمان ، رقم (١٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، برقم: (٢٦٤١) ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما .

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ١٨٦)

قال ابن حزم : « ذكروا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القدرية والمرجئة مجوس بهذه الأمة وحديثاً آخر تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشى واحدة فهي في الجنة قال أبو محمد هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد فكيف من لا يقول به »^(١)

أ. فريق مال إلى القول بصحة الحديث من أوله إلى منتهاه، وحمل جماعة منهم لفظ الواحدة «إلا واحد» على سلف الأمة، والذي يراد به حسب تقديرهم منهج معين في التعامل مع النصوص الشرعية، وقد مثل هذا الاتجاه ابن تيمية، وابن القيم، ومن سار في فلكهم في الماضي والحاضر كما أخذ به جل أئمة الأشاعرة عبر التاريخ، ومن هذا المنطلق جعلوه حديثاً محورياً في مجموع مؤلفاتهم الكلامية، إذ وضعوه ضابطاً رئيساً في تقسيم المدارس الكلامية واتخاذ موقف منها^(٢).

٣. فريق مال إلى القول بعدم صحة الحديث، وهؤلاء تفرقوا أيضاً - أقر جماعة بافتراق الأمة مع القول بعدم صحة الحديث باطلاق، يؤيد هذا المعنى ما ورد عن الصنعاني حيث قال : «إن الزيادة بقوله كلها هالكة إلا فرقة موضوعة وإنما الحديث المعروف إنها تفترق إلى نيف وسبعين فرقة»^(٣).

- ذهبت جماعة من هذا الفريق إلى القول بصحة حديث آخر مشابه له في المبنى، ومخالف له في المعنى، أسندوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفترق النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة » وهم الزنادقة. قال العجلوني معلقاً على الحديث : « ورواه الشعراني في الميزان من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب »^(٤). وذكر الشيخ عبد الحلیم محمود معلقاً على ما وجدته في كتاب العجلوني، إنه مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور^(٥)، وقد مال إلى هذا الرأي ودافع عنه من المتقدمين أبو حامد الغزالي^(٦).

٤. هناك فريق يرى أن المراد بالأمة في قوله ﷺ : (وتفترق أمتي) أمة الدعوة لا أمة الاستجابة،

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٣٨)

(٢) ينظر في ذلك : التبصير في الدين الاسفرائيني، الفرق بين الفرق، البغدادي، المواقف الايجي، الاعتصام للشاطبي

(٣) افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة (ص: ٩٦)

(٤) كشف الخفاء ت هنداوي (١/ ١٦٩-١٧٠)

(٥) التفكير الفلسفي في الاسلام، عبد الحلیم محمود، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة بيروت لبنان

١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م (ص ١٠٠-١٠١)

(٦) فيصل التفرقة، الغزالي، (ص ١٩٣)

وعليه فإن المراد بالفرق التي تفترق إليها أمته هذه هي الأديان الباطلة الكثيرة الخارجة عن ملة الإسلام ، وليس المراد بها المدارس الكلامية من معتزلة ومُرجئة وجهمية وخارج ... إلخ .
يدل على ذلك أمران اثنان:

أولهما: قوله ﷺ في الزيادة التي ساقها الترمذي: (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً) ، وقد علمت أن الملة هي الدين ، ولا يُعبَّر عنها بالفرقة ، وملة الإسلام تشمل كل الفرق التي تكاثرت فيها ، لأن أصحاب الفرق على اختلافهم مؤمنون بوحداية الله تعالى .

ثانيهما: أن النبي ﷺ قال في صدر الحديث: (افتترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة ، وافتترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة) ومقتضى بلاغة المصطفى ﷺ ، وكونه حُجَّة في البيان والفصاحة أن يقابل كلمة اليهود والنصارى بكلمة المسلمين ، فيقول "وستفترق المسلمون إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة" ، لكنه عدلَ عن كلمة "المسلمين" ، وإنما قال (وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة) ، والمراد بالأمّة هنا أمة الدعوة لا أمة الاستجابة ، ومعنى (وستفترق أمتي) أي أمة الدعوة (إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة) أي إلى أديان مختلفة متناقضة شتى ، والدليل الناطق على هذا أنه قال بعد ذلك: (كلهم في النار إلا ملة واحدة) ولم يقل "إلا فرقة واحدة" ، كلها في النار إلا ملة واحدة هي ملة الإسلام بكل فئاتها ، بكل مذاهبها ، بكل أقوامها ، الجامع المشترك بينها أنهم كلهم يستظلُّون بظلِّ الإيمان بالله ، كلهم لهم هوياتهم التي يدخلون بها غداً في رحمة الله عز وجل ، ألا وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ .

فهذا الفهم لكلمة الأمة في الزيادة التي ساقها الترمذي وآخرون ، ينسجم مع سياق الحديث وسباقه ، ويفتح سبيل التوافق والانسجام مع الأحاديث الكثيرة المؤكّدة بأن من لقي الله مؤمناً بوحدايته لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة .